أسطول

كان الليل قد أرخى سدوله على الكون، ولم يبدد الظلام الذى ران على شارع عبد الباسط حسن سوى الأضواء المنبعثة من المصابيح التى بالمنازل والحوانيت وأعمدة الإنارة، وكان الحاج صالح وولديه فاخر وجمال جالسين أمام منزلهم قرب نهاية الشارع، يقطعون الوقت بالحديث وإجراء المكالمات التليفونية، وقبعت على مقربة منهم سيارة الحاج صالح المرسيدس الحمراء اللون.

انطلق بغتة صوت جارهم سالم الزناديقى قائلا:

- أغلقت الطريق علىّ ياحاج صالح.. كيف تمر سيارتى الجديدة وقد أغلقتم الطريق على هذا النحو؟ اشتريت سيارتى بنصف مليون.

اتجهت أبصار الرجال الثلاثة إلى سالم فى دهشة وتعجب، ثم أرخى كل منهم عينيه، ولاذ بالصمت برهة، ومال فاخر قليلا، وهمس فى أذن جمال فى سخرية وبصوت لايكاد يبين. وقال:

- من أين أتى سالم بثمن السيارة؟!

رد جمال على شقيقه بالمثل. وقال:

- من الأرض التى بالصعيد، من العزبة التى سرقها من أحد الأشخاص هناك.

وأطلق ضحكة كادت أن ترتفع وأن يتردد رنينها فى أرجاء المكان. لكن فاخر وأدها وهى فى مهدها بإيماءة رقيقة، فكتم جمال الضحكة فى شئ من الخجل.

وبلغ آذانهم صوت سالم يقول فى نبرات صوت امتزجت بشئ من اللهجة الخطابية:

- إننى أتحدث إليكم.. فاستمعوا إلىّ.. سيارتى سوف تأتى... فكيف تمر فى الشارع وأنتم جالسون هكذا؟ الشارع ضيق.. وسيارتى ثمنها نصف مليون و...و...

استولى على كل من الرجال الثلاثة الشعور كأن الدماء تغلى فى عروقه، وأراد فاخر أن يذهب إليه، وأن يوسعه ضربا ولكما، لكن الحاج صالح منعه بإشارة رقيقة من يمناه، وجاهد ليتمالك السيطرة على أعصابه الثائرة، وعندما تمكن من ذلك إلى حد ما. قال:

- ماشاء الله.. مبارك عليك نتاج الأرض الجديدة... هذه هى الهمة حقا.. هذا أفضل كثيرا من بيع الكيروسين أو الحديد الخردة أو العمل لدى الآخرين.

ثار سالم، وكاد أن يفقد السيطرة على أعصابه من شدة الغضب، فأخذ يرغى ويزبد، ويكيل الاتهامات لصالح وولديه فى محاولة لاستفزازهم ودفعهم إلى الشجار، لكن صالح منع ولديه من أن يحققا غرض سالم.

بعد فترة وجيزة، تناهى إلى أسماعهم صوت سالم يقول:

- لن أدعكم تجلسون هذه الجلسة مرة أخرى، إنكم تعوقون المرور، لستم مثلى.. يجب أن تعرفوا من أنا.

واندفع بسرعة عائدا إلى منزله وهو يغمغم بكلمات مبهمة، وبصوت لايكاد يبين، وأغلق الباب بقوة.

فى صباح اليوم التالى، بعد أن انتهى صالح من ارتداء ثياب الخروج، وقف أمام مرآة منضدة الزينة بحجرته يلقى نظرة أخيرة على مظهره، ثم تناول حقيبته من على المشجب، وغادر الحجرة.

فتح صالح باب المنزل، وهاله أن رأى صفا طويلا من السيارات المختلفة الأشكال والأحجام، فوقف عند الباب برهة يحملق إليها فى دهشة.

وعندما استفاق من ذهوله ودهشته، نظر إلى مكان سيارته ولم يجدها، فخرج يبحث عنها فى هذا الصف الطويل من السيارات الواقفة فى الشارع، وكان بين كل سيارة وأخرى شبكة كبيرة على هيئة نسيج عنكبوت من

حبل قوى متين صنع من لوف النخيل، وتربطها بالسيارة حبال من النوع ذاته، وعلى مقربة من كل سيارة وقف سائقها فى انتباه، كأنه جندى فى انتظار أمر من قائده.

وعندما انتهى صالح من فحص جميع السيارات دون أن يجد أثرا لسيارته، ارتمى على الأرض يبكى وينتحب فى حرقة.

وكان سالم يمر على السيارات، ورأى صالح فى هذه الحالة من الحزن والانكسار والشعور بالضيلع وهوان الشأن، فوقف على مقربة منه يقلده فى سخرية وشماتة لحظة، ثم انصرف لحال سبيله.

ثم تمالك صالح قدرا من السيطرة على أعصابه، وذهب إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن الحادث.

وبعد أن استدعى سالم للتحقيق معه وانتهى التحقيق، وعاد إلى منزله برفقة المحامى الذى صحبه أثناء التحقيق، نصحه المحامى بأن يخفى هذه السيارات حتى لايصادرها رجال الشرطة.

بعد إمعان فكر، جمع سالم السائقين وأمرهم بأن يقود كل منهم السيارة، وحدد لكل منهم الوقت والسرعة المناسبين، وحرص على أن يتم تنفيذ أوامره بالحرف الواحد، وكأنه قائد عسكرى يقود جنوده فى معركة حربية يتوقف عليها مستقبل دولة.

وعند نقطة مرور (.....) استوقف رجال الشرطة جميع السيارات المتجهة إلى الإسكندرية، ووقفت سيارة سالم الجديدة، وبداخلها سالم فى أول الصف، وعندما جاء دوره فى دفع الرسوم المقررة على كل سيارة، أخرج سالم من جيبه رزمة أوراق مالية، ودفع الرسوم المقررة على سياراته، وانطلق بها وهو لايكاد يصدق نفسه من السرور والغبطة والزهو.